ذكـــرى [1]

رئيس الوزراء ووزير المالية يستشفى فى أوربا ويستريح .ووكيل المالية يتروض فى أوربا ويشهد المؤتمر الاقتصادى ، ووزير المعارف يتأهب لرحلة إلى أوربا كرحلة العام الماضى ، فيها راحة بعد أن تعب فى تشييد بناء التعليم . وفيها اجتناء لثمرة هذا التعب من أوسمة وألقاب . وكيل المعارف قد سبقه إلى انجلترا ليستريح وسكرتير المعارف سيذهب إلى لبنان بعد أيام ليستريح . وأحد وكيلى الداخلية سيسافر إلى أوربا ليستريح ، والوكيل الآخر سيعمل فى الاسكندرية وإن كان قرار الوزراء يقضى بأن يبقى وكلاء الوزراء إلى وزاراتهم من حين إلى حين ، ولكن وكيل الداخلية قد تفضل على الدولة بأن يعمل أثناء غيبة صاحبه فلا بد من أن يجمع بين العمل والاصطياف على حساب الدولة ، لأنه هو أيضا فى حاجة إلى أن يستريح . ومدير الأمن العام قد ذهب إلى رودس ليستريح ، ووكيل الأمن العام قد طلب إجازة ، وأذن له فيها وزير الداخلية ليستريح . ومدير المطبوعات سافر إلى قسطنطينية ليستريح . ووكيل المطبوعات قد أذن له هو أيضا فى إجازة ليستريح .

وهؤلاء الوزراء جميعا يصطافون فى الاسكندرية على حساب الدولة ليستريحوا أثناء العمل . وأمر الوزارات الأخرى كأمر هذه الوزارات الثلاث التى أشرنا إليها آنفا إن لم يكن رجالها أشد حاجة إلى الراحة وأعظم حظا من الاجازات . وأمر المصالح كأمر الوزارات ، رؤساؤها ووكلاؤها وموظفوها فى حاجة إلى الراحة ولهم الحق كل الحق أن يطلبوا الإجازات وعلى الحكومة أن تستجيب لهم وتمتعهم من هذه الإجازات بما يريدون . وللحكومة إن شاءت وكانت ظريفة خفيفة الروح ، حريصة على أن تصطنع المجاملة وحسن المعاملة أن تنتهز فرصة هذه الإجازات لتكلف بعض الموظفين الأكفاء القيام ببعض المهمات فى أقطار أوربا ، وتدفع بإزاء هذا التكليف نفقات السفر والإقامة أو نفقات السفر دون الإقامة أو ماشئت من مقدار ضخم أو نحيف يعين على السفر والإقامة .

---

[1] كوكب الشرق فى ١١ - ٧ - ١٩٣٣ .

وخلاصة هذا كله وما يشبهه مما نعلمه ونسكت عنه ، ونجهله ولا نشير إليه أن فى مصر ظاهرتين خليقتين بالتفكير والتقدير ، خليقتين بأن يكثر فيهما الحديث ، وتذاع فيهما دعوة لمصر لا تشبهها دعوة ، وإعلان عن مصر لا يقاربه إعلان . فأما الظاهرة الأولى فهى أن أمور مصر مستقرة كأحسن ما تستقر الأمور فى حكومة ، وتدبر أمورها بغير مدير ، ونسير أعمالها بغير مسير . فهى إذن تصور المثل الأعلى للبلاد التى تتخذ الحكومة زينة وترفا وفضلا عن لهو الحياة حتى لا يقال إنها دون غيرها من البلاد .

وآية ذلك أن هذا العدد الضخم من الوزراء والوكلاء ومن الرؤساء والمديرين ، ومن أعمدة الدولة وأساطينها قد سافر أو قد يسافر ، واستراح أو قد يستريح واصطاف أو قد يصطاف ، وأن الإدارات والمصالح لاتزال فى طريقها إلى أمام تسير سيرا مستقيما ، لا عوج فيه . فلو قد كانت مصر بلدا مضطربا أو كالمضطرب ، ولو قد كانت مصر فى حاجة ملحة وضرورة ماسة إلى هؤلاء العمد والأساطين لما استطاعوا أن يستريحوا ولا أن يطلبوا الراحة أو يفكروا فيها . وأنا زعيم لك بأنك لن تجد فى أى بلد من بلاد الأرض عددا كهذا العدد الضخم من الموظفين يستريح أو يتهيأ للراحة ويسافر أو يتأهب للسفر . وأنا أعلم أن بعض المكرة الذين لا يعجبهم العجب ولا الصوم فى رجب سيقولون . وما يدريك ؟ لعل أمور الدولة تضطرب أشد الاضطراب وتفسد أعظم الفساد لتخلى هؤلاء السادة عن مناصبهم أوقاتا طوالا أو قصارا ، ولكن أحدا لا يحفل بذلك ولا أن يلتفت إليه ، والناس يعلمون ذلك ولا يشعرون به . سيقول فريق من الناس هذا أو شيئا يشبهه ولكنهم مسرفون فلا ينبغى أن تسمع لهم ، ولا أن تقف عندما يقولون ، لأن وزراءنا ووكلاءنا ورؤساءنا أحرص على مصالح الدولة وأرفق بمنافع الناس من أن يتورطوا فى هذا العبث أو أن يهملوا حياتنا العامة هذا الإهمال . ولهم ضمائر حية وقلوب ذكية ، وحرص على الأمانة شديد . فلولا أنهم يعلمون حق العلم أن سفينة الدولة تستطيع أن تجرى هادئة مطمئنة من دونهم لما تركوها ولما أذنوا لأنفسهم بهذه الراحة التى هم فى حاجة إليها من غير شك .

هذه إحدى الظاهرتين . فأما الظاهرة الثانية فهى أن مصر غنية مثرية توشك أن تصيبها التخمة لكثرة ما عندها من الغنى والثراء . وآية ذلك أنها تحتمل كل هذه الإجازات وتأجر كل هؤلاء الموظفين الذين تستطيع أن تستغنى عنهم أشهر الصيف ، وتنفق على جماعة منهم يصطافون فى الاسكندرية وعلى جماعة آخرين يتنزهون فى أوربا . فلو كانت فقيرة أو متوسطة الحال كانجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا لاقتصدت فى ذلك

بعض الاقتصاد فاستغنت عن بعض هؤلاء الموظفين الذين لا تحتاج إليهم فى الصيف لأنها من غير شك لا تحتاج إليهم فى الشتاء ، ولأبت على بعضهم الآخر أن يصطافوا على حسابها ، لأنها هى لا تصطاف . ولأبت على فريق آخر أن يستمتع بحياة أوربا على حسابها لأنها لا تستمتع إلا بالبؤس والشقاء . وفى هذا القيظ الذى يميط النفوس ويصهر الجلود ، ولكن مصر غنية مثرية فلها أن تنفق عن سعة وتبدد فى غير حساب ، وتمتع أغنياءها على حساب فقرائها وسادتها على حساب سوقتها . ومصر حرة تستطيع أن تصنع فى أموالها ما تشاء ، تستطيع أن تلقيها من النوافذ وترسلها مع الريح ، وليس لأحد أن يسألها فى ذلك ولا أن يحاسبها عليه . وقد شاءت فهى تنفق باليمين وبالشمال ، وهى تمتع الوزراء وأشباه الوزراء بألوان النعيم . فمن أعجبه هذا فذاك ومن لم يعجبه هذا فليشرب ماء النيل إذا لم تسمح له الظروف بأن يشرب ماء البحر .

فأنت توافقني على أن من مصلحة مصر أن يكثر الحديث فى أمر هاتين الظاهرتين ليعلم الناس جميعا أنا سعداء ، وليعلم الناس جميعا أنا قوم لا نعرف البؤس ولا الفقر ، ولا الشقاء ، وليعلم الناس جميعا أنا قوم لا يجد الخوف إلى نفوسنا سبيلا ، وليس بين قلوبنا وبين الإشفاق من غد أو الاستعداد لغد سبب ما . ومالنا وللتفكير فى غد وأمورنا ميسرة والحمد لله ، وسادتنا أعلم منا بمنافعنا وأقدر منا على حمايتنا من النوائب والأحداث . وهم راضون فيجب أن نرضى ، وهم مطمئنون فيجب أن نطمئن وهم مبتسمون فيجب أن لا يفارق ثغورنا الابتسام .

وتسألنى عن هاتين الظاهرتين : ما مصدرهما ؟ ولم امتازت مصر من بلاد الله جميعا فسعدت والعالم شقى ، وأثرت والعالم فقير ؟ واطمأنت والعالم مضطرب ؟ وابتهجت والعالم محزون ؟

والجواب على هذا السؤال يسير ، لا يحتاج إلى مراجعة التاريخ ولا إلى استشارة الاقتصاد ، وإنما يحتاج إلى شىء واحد هو أن نذكر اليوم الذى نحن فيه ، فهو اليوم الذى أغار الانجليز فيه على مدينة الاسكندرية ودخل الانجليز من بعده فى مصر .

هذا اليوم الذى مضى عليه نصف قرن أو أكثر من ذلك قليلا هو مصدر سعادتنا التى نمتاز بها الآن من بلاد الأرض كلها . كنا بائسين فذقنا الغنى منذ ذلك اليوم . وكانت أمورنا كلها إلى غيرنا فأصبحت أمورنا كلها إلينا ، منذ ذلك اليوم . ولم يكن لنا وزراء ولا وكلاء ولا موظفون يستطيعون أن يستريحوا ويسرفوا فى الراحة ، أو يصطافوا على

حسابنا أو يتنزهوا فى أوربا على حسابنا لأننا فى تلك الأيام لم يكن لنا حساب . أما منذ الاحتلال فقد غنينا وأثرينا واكتظت المصارف بأموالنا ، فمن حقنا أن ننفق منها فى غير تقدير كما نشاء وعلى من نشاء .

ألست ترى معى أن الحكومة موفقة كل التوفيق إلى الصواب حين تأبى على الناس أن يحتجوا على ضرب الاسكندرية أو يحزنوا لذكرى الاحتلال . إنما تنشأ الحكومات بين الناس لتعلمهم الوفاء والاعتراف بالجميل ولتزجرهم عن العقوق وكفر النعمة . والمصريون فى هذه الأيام عاقون جاحدون ، ينكرون فضل الانجليز عليهم ، ويحزنون لمقام الانجليز فيهم ، فيجب أن تؤدبهم الحكومة فتحسن تأديبهم ، وتأخذهم بأن يصطنعوا شيئا من الحياء فيكتموا عقوقهم إذا لم يكن بد من العقوق ويضمروا جحودهم إذا لم يكن بد من الجحود ، ويحزنوا فيما بينهم وبين أنفسهم إذا لم يكن بد من الحزن . فليس يليق بمصر أن يقول الناس عنها إنها حزينة كئيبة فى هذا اليوم الذى كان يجب أن تظهر فيه الفرح والمرح والابتهاج .

أما أنا فقد أردت أن أكون كغيرى من الكتاب الذين كتبوا فى ذكرى هذا اليوم فوعظوا وأحسنوا العظة ، وصوروا وأجادوا التصوير ، ولكنى لم أجد عظة أبلغ ولا عبرة أوقع فى النفوس ولا تصويرا أدق لآثار الاحتلال فى نفوس المصريين وقلوبهم فى حياتهم العامة والخاصة ، وفى منافعهم ومرافقهم وفى عزتهم وكرامتهم وفى آمالهم ومثلهم العليا من هذه الصورة التى نحن فيها الآن فى ظل هذا العهد السعيد . فهذا العهد السعيد أثر من آثار الاحتلال وصورة من أصدق صوره ، ومرآة تمثله كما هو بما فيه مما نحب ومالا نحب ، ومما نرضى ومالا نرضى . فمن كان يعجبه هذا العهد فليعجبه الاحتلال ويتمنى بقاءه . ومن كان يؤذيه هذا العهد فى نفسه وكرامته وعزته ومنافعه فليؤذه الاحتلال ، ويتمنى على الله أن يجلو غمرته ، ويزيل كربته ، وليعمل ما استطاع ليخلص من أذاه المتصل وشره المقيم .